الخطاب النقدي السيميائي لدى عبد الملك مرتاض

Semiotic Critical Discourse of Abd al-Malik Murtad

د.مباركية عيسى

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج (الجزائر)

issambarkia@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/08/09 **تاريخ القبول: 2020/09/13**

ملخص:

يعدّ الناقد "عبد الملك مرتاض" أحد النقاد الجزائريين الذين خاضوا في مجال النقد الأدبي بصفة عامة، والدراسات السيميائية بصفة خاصة، ومؤلفاته التي خصها في هذا الجانب تؤكد اهتمامه بهذا الجانب، رغبة منه في محاولة بلورة هذا الاتجاه وفق مفاهيم وإجراءات مرتاضية.

وعليه ستقارب هذه الدراسة موضوعها الموسوم بـ "**الخطاب النقدي السيميائي لدى عبد الملك مرتاض**" من محورين:

- المحور الأول يتناول الجهاز المفاهيمي للاتجاه السيميائي في بيئته الغربية.
- المحور الثاني؛ يعتبر جوهر هذه الدراسة، ويتضمن الكشف عن السيميائية في بيئتها العربية، خصوصا تلك الجهود التنظيرية والتطبيقية عند مرتاض في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: السيميائية، الخطاب النقدي، عبد الملك مرتاض.

***Abstract*:**

Abdelmalik Mertaad is one of the Algerian critics who have studied the field of literary criticism in general, and the field of semiotic studies in particular. His works emphasize on this aspect in order to develop an approach according to certain Mertadi's concepts and procedures. Therefore, this study will bring the subject of "**Semitic critical discourse of Abd al-Malik Murtad**" along two themes. The first adresses the conceptual

device of the semiotic approach in its Wertern environment. The second is the substantive area of this study, will includes finding out both the theoretical and the practical part of Arabic semiotic approach in its environment, especially those of Abdul Malik Murtad.

***Keywords*:** semiotics, critical discourse, Abdul Malik Murtad.

مقدمة:

لقد تعددت الاتجاهات النقدية في العصر الحديث، وأصبح التطور في مناهج النقد أمرا ملحوظا وملموسا بكثرة خاصة عند الأوروبيين، وفي خضم هذا التعدد من الاتجاهات النقدية المتباينة، حاول النقد الأدبي المغاربي أن يجد له مكانة بين هذه المناهج الحديثة والمعاصرة، وهذا عن طريق المثاقفة والتفاعل مع الغرب، وكذا توفر الكتب والمجلات المتخصصة في هذا الجانب، وهو الأمر الذي ساهم في ظهور عدة محاولات عربية خاصة المغاربية في هذا المجال سواء على مستوى التنظير أم على مستوى التطبيق.

ومن بين هذه المحاولات العربية المغاربية نذكر التجربة النقدية لدى الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض"، محاولة منا تسليط الضوء على مشروعه النقدي، مع تضييق دائرة البحث في جانب معين والمتمثل في : "الاتجاه السيميائي".

وفي سياق تحديد إشكالية هذه الدراسة، يمكننا أن نطرح بعض الأسئلة التي من خلالها يمكننا أن نميط اللثام عن تلك التجربة النقدية لدى هذا الناقد.

- فهل استطاع "مرتاض" بلورة هذا المنهج النقدي بمفاهيم وإجراءات "مرتاضية"، أم أنه اكتفى بالتزود من مشاربه الغربية ؟
- وكيف تجلت معالم هذه النظرية عنده ؟
- وإلى أيّ حدّ وفق الناقد في تطبيق هذا المنهج ؟

وحتى يتسنى لنا معرفة تجربته النقدية في هذا المجال، علينا أن نقوم بعملية مسح في مؤلفاته التي خصها في هذا الجانب، حتى تكون الرؤية مستنيرة وواضحة.

بداية وقبل أن نشرع في الحديث عن النظرية السيميائية في البيئة النقدية العربية عند "عبد الملك مرتاض"، علينا أن نعرج عليها في بيئتها الغربية، وحتى يتسنى لنا معرفة هذه النظرية أكثر ينبغي علينا أن نشير إلى نشأتها ومفهومها مع أبرز روادها.

1- السيميائية في بيئتها الغربية:

يعدّ "فرديناند دي سوسير" (1857–1913) أول من بشر بميلاد علم جديد يهتم بدراسة العلامات، وأسماه بـ : (السيميولوجيا sémiologie)، أي "علم العلامات"، وعن ذلك يقول: «نستطيع أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي وبالتالي قسما من علم النفس العام، ونقترح تسميته sémiologie سيميولوجيا، أي علم الدلائل وهي كلمة مشتقة من اليونانية (sémion) بمعنى دليل، ولعله سيمكننا من أن نعرف مما تتكون الدلائل والقوانين التي تسيرها، ولما كان هذا العلم غير موجود بعد فإنه لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون، ولكن يحق له أن يوجد ومكانه محدد سلفا، وليست الألسنية سوى قسم من هذا العلم العام والقوانين التي يكشف عنها علم الدلائل سيكون تطبيقها على الألسنية ممكنا، وستجد الألسنية نفسها ملحقة بميدان محدد المعالم مضبوط ضمن مجموعة الظواهر البشرية»[1].

وعليه فالسيميولوجيا بذلك هي علم العلامات، وهو العلم الذي اقترحه "فرديناند دي سوسير" كمشروع مستقبلي لتعميم "علم اللسانيات" الذي جاء به.

كما جاء الأمريكي "شارل ساندرس بيرس" (1830–1914) ليربط هذا العلم بالمنطق في نفس الفترة التي كان يخطط فيها "سوسير" للخروج به، حتى اختلط على الدارسين في تحديد من الأسبق منهما في الخروج بالفكرة، وقد خرج "بيرس" بتصور آخر لهذا العلم أطلق عليه تسمية (سيميوطيقا semiotics) الذي لا ينفصل عن المنطق، وعن هذا يقول: «...ليس المنطق بمفهومه العام إلا اسما آخر للسيميوطيقا، والسيميوطيقا نظرية شبه ضرورية أو نظرية شكلية للعلامة»[2]، والمعنى من هذا أن المنطق يتجلى في العلامة من خلال العلاقة بين الدال والمدلول، وقد اقتصرت دراسته على الجانب التطبيقي، في حين نجد "سوسير" ركز على الجانب النظري.

عن الاختلاف في التسمية (سيميولوجيا/سيميوطيقا)، (سوسير/بيرس) فيمكن القول بأن «الأوروبيين يفضلون مفردة السيميولوجيا التزاما منهم بالتسمية السوسيرية، أما الأمريكيون فيفضلون السيميوطيقا التي جاء بها المفكر والفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس»[3].

ومما سبق يتضح أن مصطلح (سيميولوجيا/سيميوطيقا) مصطلحان مترادفان، أو يمكننا القول بأنهما وجهان لمفهوم واحد، وموضوعهما هو دراسة العلامات وأنساقها، سواء كانت هذه العلامات لغوية أم غير لغوية في نطاق الحياة الاجتماعية.

2- السيميائية في البيئة العربية (الجهود التنظيرية والتطبيقية عند "عبدالملك مرتاض"):

يعدّ الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض" من أبرز وأهم النقاد المغاربة الذين خاضوا في مجال النقد الأدبي عامة، والدراسات السيميائية بصفة خاصة، وخير دليل على ذلك كتاباته المتعددة والمختلفة في هذا المجال التي حاول من خلالها التعريف بالمنهج السيميائي، كما نجده يطبق هذا المنهج على مجموعة من النصوص والأعمال الأدبية المتنوعة، ولا يقتصر في تطبيقه على جانب معين، بل يطبقه على النص بشقيه (القديم والحديث)، وما يمكن ملاحظته في مشروعه النقدي تلك المزاوجة بين الإطار النظري وبين الممارسة التطبيقية التي يعكف المؤلف من خلال تطبيق آلياته النظرية على نصوصه المختارة.

ومن أهم ما كتبه في هذا المجال (الدراسات السيميائية) نجد:

- بنية الخطاب الشعري [1986].
- ألف ليلة وليلة: تحليل سيميائي لحكاية حمال بغداد [1993].
- شعرية القصيدة، قصيدة القراءة [1994].
- تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"[1995].
- مقامات السيوطي: تحليل سيميائي [1996].
- نظرية النص الأدبي [1997].
- في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد [1998].

وهذه الكتب السالفة الذكر، نجد صاحبها يتجاوز فيها البنيوية إلى ما بعدها وبالأحرى تبنيه للمنهج السيميائي، وإن كان في بعضها يزاوج بين السيميائي والتفكيكي.

وهناك من يقول أن "عبد الملك مرتاض" «بدأ مساره النقدي السيميائي من خلال تحليله السردي لحكاية حمال بغداد، وهي إحدى حكايات ألف ليلة وليلة»[4]، فهو أول كتاب حاول من خلاله تجسيد معالم الدرس ضمن مشروعه، وفي سياق حديثه عن هذا المنهج (السيميائي) يقول: «فلتكن هذه محاولة ممنهجة لدراسة التراث العربي، ولتكن قبل كل شيء مدرجة لإثارة السؤال ومسلكه لاستضرام الجدال، ولتكن أيضا دعوة إلى التجديد ولكن بعيدا عن فخ التقليد الذي ابتلينا به في هذه النظريات التي نقرؤها مترجمة»[5].

وإذا انتقلنا للحديث عن كتابه "**شعرية القصيدة، قصيدة القراءة**" فإننا نراه يتناول نصا شعريا يتمثل في (قصيدة أشجان يمانية) لـ "عبد العزيز المقالح" فنجده يخضع هذه القصيدة إلى تحليل وفق منهج مركب (سيميائي تفكيكي)، وما يمكن ملاحظته في كتابه هذا أنه يسعى جاهدا إلى الوقوف على أهم المفاهيم الأساسية للمنهج السيميائي، ومحاولة إسقاطها على نصه الشعري، وما يؤكد على ذلك قوله: «نود أن نتوقف لدى هذه المفاهيم السيميائية الأربعة، واحدا واحدا، لنعرف بها تنظيرا أولا ثم نخلص من بعد ذلك إلى ممارسة التطبيقات عليها من حد نص "أشجان يمانية"...»[6].

وأما عن المفاهيم السيميائية الأربعة التي أشار إليها في نصه السابق، فهي تتمثل في كل من: (الأيقونة، القرينة، الرمز، الإشارة).

وبالنسبة للعنصر السيميائي الأول (الأيقونة icon)؛ التي هي علامة تحيل على الموضوع بموجب الخصائص التي يمتلكها هذا الموضوع؛ التي نجد فيها "مرتاض" يقترح بديلا لهذا المصطلح، ويفضل تسميته بمصطلح (المماثل)، وفي سياق توضيحه للعلاقة القائمة بين الماثول (الدليل) والموضوع الذي يحيل عليه، نجده يوظف المصطلح الذي يراه بديلا لمصطلح "أيقونة"، فيقول: «... فالعلاقة التي تربط بين ما نطلق علية المماثل والممثال له علاقة مشابهة ومماثلة للعالم الخارجي، أو للمظهر الخارجي ...»[7].

أما عن (القرينة indice) وهي التي نجدها تنسج علاقة مباشرة أو ملاصقة مع موضوعها، ويقترح بديلا لهذا المصطلح ويفضل تسميته بـ :(العلية) هذا الاسم الذي يأخذه من مصطلحات النحاة العرب، وهذا ما وجدناه في نصه الآتي الذي يعرف فيه مصطلح القرينة فيقول :«القرينة عبارة عن علاقة علية توضع بين حدث ليسانياتي والشيء المدلول عليه، فيكون رفع صوت ما بصورة غير مألوفة قرينة للوقوع تحت وطأة عدوان، كما أن الدخان في مألوف العادة، قرينة للنار»[8] فالدخان إذن معلول، والنار هي العلة، والعلاقة الناتجة عنهما علاقة علية.

أما الحديث عن مفهوم (الرمز symbole)، فنجده يورد له تعريفا فيقول: «الرمز يتخذ له أثوابا شتى ويتشكل في أشكال مختلفة: مجسدة حية، أو ناطقة مسموعة، أو خرساء منظورة كالنار العربية، والكتابات الإشهارية، والكتابات الشعارية ...»[9]، ويضرب أمثلة لهذا العنصر من بينها: أن الأسد رمز للقوة والشجاعة، والقلم رمز للعلم أو الكتابة ...

في حين يشير إلى أهمية العنصر السيميائي الأخير (الإشارة le signal) بقوله: «إنها مجال سيميائي شاسع المضطرب، بعيد المأتى، بحيث لا يمكن لأحد من الكتاب، ولا لأحد من محللي النصوص بالمقاربات السيميائية، أن يستغنوا عنه ...»[10]، ويرى أنّ الإشارة قد تكون لغة غير طبيعية، فهي إما (صوتية أو بصرية)، أما عن الأولى والتي تدرك بالسمع كمختلف الأجراس، والثانية التي تدرك بالبصر كإشارات المرور ودلالاتها.

وفي هذا الجانب أيضا هناك كتابين آخرين "لعبد الملك مرتاض" يحتويان على الكثير من هذه الممارسة النقدية التي ذكرناها، بحيث نجده يشتغل على نصوص سردية يعمل على مقاربتها سيميائيا، وهذان الكتابان هما:

– تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق.

– مقامات السيوطي: تحليل سيميائي مركب للمقامة الياقوتية.

فنجده يشتغل فيهما بالتطبيق والتحليل معتمدا على أهم الآليات والإجراءات السيميائية (كسيميائية التشاكل وسيميائية الألوان).

ومن أعماله الأخيرة التي اهتم فيها بالتنظير لهذا المنهج نذكر كتابيه :

- نظرية النص الأدبي.
- في نظرية الرواية.

فنجده يكشف الغموض واللبس الذي يكسو مصطلح السيميائية في الوطن العربي خصوصا في مؤلفه الأول (**نظرية النص الأدبي**)، وبالتحديد في فصله الرابع المعنون بـ: "النص والسيميائيات الأدبية"، فقد وقع هذا المصطلح في إشكالية، مما سمح بتعدد تسمياته فنجد مثلا: (السيميائية، السيمائية، السيميائيات، السيميوطيقا، السيميولوجيا الدلائلية ...)، ومن بين المصطلحات التي يفضلها "عبد الملك مرتاض" مصطلح (سيميائية) وخير دليل على ذلك عناوين مؤلفاته التي تحمل مثل هذا المصطلح كما رأيناه سابقا، ولا حرج في أن نستشهد بواحد أو اثنين منهم قصد التوضيح أكثر: (ألف ليلة وليلة: دراسة سيميائية تفكيكية)، وآخر بعنوان: (دراسة سيميائية تفكيكية لنص أين ليلاي).

كما أننا نجده يورد لها تعريفا (السيميائية) فيقول: «إنّ مفهوم السيميائية آت، كما هو معلوم من تركيب (س و م) الذي يعني فيما يعني (العلامة) التي يعلم بها شيء ما كالثوب، وإنسان كالوشم...»[11].

فمن هذا التعريف نرى أنه يفضل تسمية "السيميائية" ويتخذه مصطلحا خاصا به ويرى أن لفظة (سمة) هي الأصل الاشتقاقي والمكون الأساسي لمصطلح (سيميائية) ويتحدث عن أهمية هذه اللفظة من خلال تلك الإشارة التي يرى فيها: «أن الأمم عرفت مفهوم "السمة" وتعاملت معه من المظاهر التي ربما أهمها (الإشارة)، واستخدام اللون وإقامة الطقوس المتعلقة بممارسة الشعائر الدينية والتعبير عن مناسبات الأفراح وإبداء التألم والتوجع لدى حدوث الأتراح، ولا سيما الإغريق والعرب في ثقافتهما الكبيرتين»[12]، وفي تبنيه لهذا المصطلح (سمة) نراه يوضح في موضع آخر من كتابه (نظرية النص الأدبي) كيف

يخوض في العودة إلى أصل هذا المصطلح سواء أكان ذلك عند العرب أم عند الغرب (القدماء والمحدثين)، فيشير إلى جهود (بيرس) في هذا المضمار، خصوصا فيما يتعلق بأنواع السمات والتي يحددها في ثلاثة أنواع:

- « السمة الوصفية (qualisigne)
- السمة الفردية (sinsigne)
- السمة العرفية (légisigne)»[13].

أما عن مؤلفه الآخر (**في نظرية الرواية**)، فنجده يتناول موضوع السيميائية، في جانب من جوانبه، وكان هذا الجانب بعنوان (اللغة والفلسفة والسيميائية)، فنراه يشير إلى جهود كل من (سقراط) و(أفلاطون) و(ابن جني) في تعريفهم للغة، كما يشير إلى جهود علماء اللسان في فهمهم وتفسيرهم للظاهرة اللغوية ودراستها بطريقة سيميائية تسعى إلى التحكم في السمات الطبيعية والسمات الاصطناعية، ويوضح كلا من هذه السمات فيقول عن الأولى: «وهي اللغة التبليغية التي يكون بثها دون قصد، كدكنة السماء الدالة على وشكان هطلان المطر...»[14]، أما عن السمة الاصطناعية فهي تلك: «التي تنصرف إلى كثير من المظاهر التعبيرية أو التبليغية التي منها اللغة اللفظية، والرسوم، والأشكال، والإشارات الصوتية مثل دق طبول وجبة السحور في رمضان...»[15]، كما ميز بين السمات البسيطة والسمات التركيبية أو المركبة.

ومن خلال التقسيمات السالفة الذكر نراه يربط بين السيميائية ودراسة النص الروائي فيقول: «وليكن النص الروائي بحذافيره، هنا مركبا من عدد ضخم من التراكيب والصياغات أي أنه مركب من تسلسلات طويلة من السمات المتداخلة»[16].

خاتمة:

بعد هذه الجولة في رحاب الخطاب النقدي لدى "عبد الملك مرتاض"، خاصة في المجال السيميائي يمكننا أن نخرج بمجموعة من النقاط المتوصل إليها كخلاصة لهذه التجربة والتي نوجزها فيمايلي:

- لقد اهتم "عبد الملك مرتاض" بالمناهج النقدية المعاصرة كالبنيوية والسيميائية والتفكيكية ... إلا أنّ اهتمامه بالمنهج السيميائي كان أكثر حظا من المناهج الأخرى وهذا ما لمحناه في أغلب كتاباته، فطبق معظم مبادئ وآليات النظرية السيميائية الغربية لكنه اقترح مصطلحات وآراء بديلة ومتعددة تتناسب مع الفكر العربي.
- استلهم الناقد "عبد الملك مرتاض" أفكاره النقدية من عدة مرجعيات عربية برجوعه للموروث العربي، ومرجعيات غربية حيث بدا متأثرا بأفكار "دي سوسير" ومفاهيم كل من "غريماس" و"كورتيس".
- ما يمكن ملاحظته على أغلب مؤلفاته في هذا المجال أنه يزاوج بين الجانب النظري والتطبيقي، ويحاول إسقاط الأبعاد النظرية على نصوصه سواء أكانت شعرية أم سردية قديمة كانت أم حديثة.
- لقد استطاع "مرتاض" من خلال تجربته أن يستقرئ التراث في ضوء المناهج الحديثة وخصوصا في مقارباته السيميائية، والغرض من هذا كله هو محاولة التوفيق بين ماهو حداثي و ما هو تراثي، من خلال الإفادة مما هو حداثي بتجربته على التراث العربي وإعادة قراءة هذا التراث بطريقة حداثية؛ أي أنه يسعى إلى الربط بين المفاهيم الحديثة والتراث العربي، بغية الوصول إلى منهج سيميائي عربي يستند إلى التراث ويمسك بكل ما هو حداثي.

الهوامش والإحالات

(1)– فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، تر: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، دط، 1985، ص: 37.

(2)– فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2010، ص: 17.

(3)– ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي الأدبي، الدار البيضاء، المغرب، ط3 2002 ، ص:177.

(4)– طارق ثابت: عبد الملك مرتاض وجهوده في التنظير لتحليل الخطاب الأدبي "المنهج السيميائي نموذجا"، أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر ص: 02.

(5)– عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة – تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد –، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر دط، 1993، ص: 08.

(6)– عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة، قصيدة القراءة، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1 1994، ص: 233.

(7)– المصدر نفسه، ص: 234 .

(8)– المصدر نفسه، ص:237.

(9)– المصدر نفسه، ص: 241 .

(10)– المصدر نفسه، ص: 242 .

(11)– عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة ،الجزائر، ط2، 2010، ص:157.

(12)– المصدر نفسه، ص: 147.

(13)– المصدر نفسه، ص: 149.

(14)– عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد "، عالم المعرفة، دط، 1998 ص: 99.

(15)– المصدر نفسه، ص: 99 .

(16)– المصدر نفسه، ص: 100 .